كلام الله في حياة القدّيس فرنسيس

الأب نجيب إبراهيم الفرنسيسكاني

عنوان المسيرة

قُبيل الرحيل إلى حضن الآب السّماويّ، واستجابة لطلب الإخوة، عبّر القدّيس فرنسيس عن أثمن ما في القلب في وصيّته، مسلّطاً الضوء على خياراته الكبرى، من خلال عطايا الرب. فكان عنوان كل مرحلة من مراحل حياته عبارة "أعطاني الرّبّ". والبداية كانت مع الإنجيل:

«عندما اعطاني الرّبّ إخوة لا أحد بيّن لي ماذا عليّ أن أفعل، بل العليّ نفسه أوحى لي أنّه يجب أن أعيش حسب طريقة الانجيل المقدس» (وصية ٤١).

نفهم من هذه الكلمات أن قصد ونية القديس فرنسيس هي "عيش الانجيل". وهذا ما نقرأه بوضوح في بداية القانون للرهبانية الاولى:

«يقوم قانون وحياة الاخوة الاصاغر على حفظ إنجيل ربّنا يسوع المسيح المقدس». نحن امام المبدأ الاساسيّ لمشروع الحياة الانجيلية حسب الهبة التي نالها من الله.

منذ البداية ما أراد القدّيس فرنسيس أن يكتب قوانين على مثال القدّيس "أغسطينوس" والقدّيس "مبارك"، بل كان قصده الأول والأخير عيش الإنجيل والذي اختصر بعض مقاطعه ليكون "نهج الحياة" أي القانون الأول الذي قدمه للبابا "إينوشنسيوس" سنة ١٢١٠. لذلك تستعد الرهبانية الفرنسيسكانية للاحتفال باليوبيل المئوي الثامن لتأسيسها في سنة ٢٠١٠. وهذه المقالات الفرنسيسكانية في مجلّة السلام والخير هي مساهمة للتذكير والمشاركة في هذا اليوبيل.

باستطاعتنا القول ان كل مسيحي مدعو لعيش الانجيل، ولكن الروحانية الفرنسيسكانية تتميز بحبّ خاص للكتاب المقدس. مع المجمع الڤاتيكاني الثاني، شهدت الكنيسة انطلاقة جديدة للعودة الى الجذور، الى الينابيع الاصيلة لحياتنا المسيحية والمكرسة: الكتاب المقدس، كتابات وروحانيّة المؤسّسين، آباء الكنيسة، إلخ. والرجوع إلى الجذور يعني العودة مع القدّيس فرنسيس إلى الهبات الأصيلة، إلى الإنجيل، فيغتني القارئ بهذه الشهادة الرائعة.

في البدء كانت الصلاة

والصلاة لقاء حبّ وحوار حياة. لقاء المصلوب في كنيسة القديس داميانوس هو واحد من الأحداث التأسيسية الثلاث التي وجهت حياة فرنسيس: قبلة الابرص، الصلاة أمام المصلوب في

كنيسة القديس داميانوس وإنجيل الرسالة في كنيسة سيدة الملائكة. في كنيسة القديس داميانوس قَبِل فرنسيس الدعوة – الرسالة: «إذهب فرنسيس ورمّم كنيستي».

استعدّ للطاعة وبدأ ترميم كنيسة الحجر المتداعية، رغم ان المطلوب كان ترميم تلك الكنيسة التي اقتناها المسيح بدمه. هذا ما سوف يُفهمه إياه الروح القدس لاحقا من خلال انجيل الرسالة. والاساس هو ايمان فرنسيس بحضور المسيح في حياته، فيأخذ المبادرة ليستنير بكلامه. اختبر فرنسيس بالفعل قوة كلام الله وهو روح وحياة. أصغى إلى صوت المسيح الحيّ فكانت صلاته في كنيسة القديس داميانوس حدثا توجيهيا لاختياراته اللاحقة ولطريقة قراءته الكتاب المقدس.

لقاء المسيح في الكتاب المقدس

يروي الراهب "توماس من تشيلانو"، كاتب سيرة القدّيس فرنسيس، كيف استنار بالإنجيل بينما كان يشترك بالقدّاس في كنيسة سيّدة الملائكة في خارج مدينة أسيزي، وهي إحدى الكنائس الثلاث التي قام بترميمها. يقول "تشيلانو" في سيرته الأولى وهي أقدم سيرة عن حياة القدّيس فرنسيس:

«ذات يوم كان الكاهن يقرأ في هذه الكنيسة الإنجيل الذي يُعلن فيه عن رسالة الرسل بالتبشير، كان القديس حاضرا ولكنه فهم فقط المعنى العام للإنجيل. بعد القداس طلب من الكاهن أن يشرحه له. والكاهن قام بشرحه آية بعد آية. وعند سماع فرنسيس أنّه على تلاميذ المسيح أن لا يقتنوا ذهبا ولا فضة ولا مالا، ولا كيسا للمال، ولاخبزا ولا عصا للطريق، ولا نعلين، ولا ثوبين، بل فقط التبشير بملكوت السماء وبالتوبة. حالا وممتلئا من الروح القدس صاح قائلا: هذا ما أريد، هذا ما أصبو إليه، هذا ما أتشوّق أن أفعله من كل قلبي».(١ شيلانو ٢٢).

بعد التغيير الجذري الذي عاشه فرنسيس منذ ثلاث سنوات قام خلالها بترميم ثلاث كنائس، حاول دائما ان يفهم إرادة الله بواسطة الصلاة والإرشاد الكنسي المتمثل بنوع خاص باسقف أسيزي. والحدث الذي تمّ في سيدة الملائكة سوف يطبع حياة فرنسيس بسمات الإنجيل، ويصبح المرجعية التي تبلور تفكيره في المستقبل. فمن خلال سيرة حياته وكتاباته نفهم أنّ هذا الحدث هو تجليّ المسيح الذي يدعو فرنسيس لاتباعه. التفاصيل مهمة جدا ويتميز شيلانو الاول بإعطائنا إياها.

أولا لننتبه إلى إطار الصلاة الليتورجية. إنه إنجيل القدّاس في عيد أحد الرسولين: عيد القديس لوقا الانجيلي في ١٢ تشرين الأول ١٢٠٨ أو عيد القديس متّى في ٢٤ شباط ١٢٠٩. لذلك سوف تصبح الليتورجيا، صلاة الساعات والقداس اليومي، المصدر الأساسي للقاء الرب

في كلمته المكتوبة، والنبع الذي يُخصب صلاته الشخصية وفكره وكتاباته.

ثانيا على مثال التلاميذ الذين سألوا يسوع عن معنى الأمثال التي قالها للجموع، بعد القداس سأل فرنسيس الكاهن عن معنى الانجيل. ويؤكّد شيلانو أنّ الكاهن شرحه آية بعد آية. أعتقد أن هذه الخبرة الكنسية سوف تصبح قاعدة لطريقة قراءته للكتاب المقدس. لذلك اهتمّ أن يأخذ اللاهوتيون والشرّاح مكانهم في مسيرته الانجيلية. إذن علينا الاقتناع بأنّ فرنسيس لم يكن ضد العمل العلميّ ولم يكن مخالفا لما ندعوه اليوم "المعنى الادبي"، او المعنى الاول للنص الكتابي وكأنّ هذا يعاكس المعنى الروحيّ. سوف يقول في وصيته ما يلي:

«وُجِب أن نحترم ونكرّم كلّ اللاهوتيين والذين يوزّعون الكلمات الإلهية السامية القداسة احترامنا لمن يوزّع علينا الروح والحياة» (وصية، ٣١).

وسؤاله عن المعنى رسّخ فيه نعمة التواضع أمام كلمة الله والبعد الكنسيّ لهذا الكتاب الذي ندعوه حقا "كتاب الكنيسة". وعلينا أن نشدّد على هذا البعد الإيمانيّ في علاقته مع الكتاب المقدس. الكثير من الحركات الانجيلية الداعية الى التوبة والفقر في عصره، شذّت عن الإيمان القويم وخرجت عن الشركة الكنسية لأنّها فصلت الإنجيل عن الكنيسة. اما فرنسيس وبكل بساطة فقد انطلقت مسيرته الروحية من كنيسة سيدة الملائكة حيث عاش لقاء الرب القائم من بين الاموات في الاحتفال بالافخارستيا وكانت هذه الكلمة المعلنة والمفهومة كنسيا نورا لخطاه وغذاء لحياته.

وأخيرا تصبح كلمة الله دعوة ورسالة ومشروع حياة. باندفاع الروح القدس، ملهم الكلمة ومفسرها الحقيقي، يصرخ فرنسيس قائلا: «هذا ما أريد ...». وكأنّه اكتشف ذاته. والكلمة التي قرأها وسمعها، باستطاعتنا ان نقول انها قرأته، قرأت حياته، أنارت ما في قلبه من شوق وعواطف. أذكر هنا ما قاله لي أحد الشباب خلال سهرة انجيلية: «بالفعل وكأنّ هذه الكلمات تفسّر ما نعيشه». حقا نقول أنّ هدف الكتاب المقدس هو الخلاص. فرنسيس حاول الإصغاء إلى كلمة الله وبحث عن المعنى فكانت أذن الله هي التي تسمع وكلمته هي التي تتحرك نحوه ونور القائم من بين الاموات يدخل اعماقه ليعلّمه من الداخل ويهبه ما هو «روح وحياة». نعم تغيّرت حياته منذ ثلاث سنوات فلم يعد فرنسيس ذلك الشاب المندفع وراء مباهج العالم وكرّس ذاته لله في الكنيسة، ولكن الانجيل المكتوب وحده أناره بشكل واضح ليميّز دعوته.

نهج حياة

ما حدث في "البورتسيونكولا" لم يكن مجرد حدث لأنّه صار "نهج حياة" للقاء المعلم

الالهي والإتّحاد به.

في ملاحظة مكتوبة في آخر كتاب الفرض الإلهي الذي استعمله فرنسيس خلال حياته، – وقد خطّها الاخ لاون، رفيق القديس– في هذه الملاحظة نقرأ ما معناه أنّ فرنسيس كان يصلّي دائما الفرض الإلهيّ وخلال مرضه كان يريد أن يسمع صلاة الفرض. لا بل بأمره نُسخ كتاب الأناجيل حتى إذا ما وقع مريضا ولم يكن باستطاعته الإشتراك بالقداس، طلب أن يُقرأ له إنجيل قداس اليوم. وهكذا فعل حتى ساعة موته. وكان يقول: «عندما لا أسمع القداس، أسجد لجسد المسيح بالصلاة وبعيون القلب، تماما مثلما أسجد له خلال الاحتفال بالقداس» (المصادر ٢٦٩٦).

هكذا فعل فرنسيس حتى مماته معمّقا علاقته بالرّبّ يسوع من خلال كلمته المعلنة في الكنيسة. فأصبحت الكلمة ما يكشف عن المسيح وما يحجبه. فالهدف الأول والأخير هو المسيح وان نعرف كما يعرفنا الله:

«فنحن اليوم نرى في مرآة رؤية ملتبسة، وأما في ذلك اليوم فتكون رؤيتنا وجها لوجه. اليوم أعرف معرفة ناقصة، وأما في ذلك اليوم فسأعرف مثلما أنا معروف» (١ قورنتس ١٣: ٢١).

الكلمة وراء الكلمات

فهم فرنسيس بحدسه الإنجيليّ أنّ كلمة الله تختبئ وراء الكلمات العديدة في الكتاب المقدّس. فهذه لها دور معيّن وهو الكشف عن المسيح الحيّ القائم من بين الاموات. نتوقف هنا عند السيرة الثانية لشيلانو ١٠٥:

«وكان فرنسيس مريضاً ومليئاً بالأوجاع من كلّ ناحية، فلما رآه أحد الرفاق على هذه الحال قال له: لقد كنت دائماً تجد لك ملجأً في الكتاب المقدس وكنت تجد فيه علاجاً لآلامك فأرجوك أن تطلب أن يُقرأ لك بعضٌ من سِيَرِ الأنبياء فلربما ابتهجت نفسك بالرب. فأجابه القديس: إنّ قراءة الكتاب المقدّس أمر جيد بل ضروريّ دائما، كما أنّه حسن أيضا أن نبحث فيه عن الرب إلهنا، أما فيما يخصّني فإني قد نهلت من الكتاب المقدس ما يمنحني الكثير من التأمّل والتبصّر ولا حاجة لي بعد يا بنيّ، إنني أعرف المسيح فقيراً وإلهاً مصلوباً».

بالنسبة لفرنسيس لم تكن قراءة الكتاب المقدّس مجرّد ثقافة دينية، كما يحصل لكثيرين ممن يقرأون الكتاب المقدّس أو حتى يبحثون عن اكتساب العلوم الكتابيّة، بل إصغاء لصوت المسيح ولقاء محبّة معه.

كلام الله في آخر المشوار

عاش القدّيس فرنسيس الساعات الأخيرة من حياته وكأنّها القمّة التي يمكن أن تسلّط الضوء على حياته كلّها. حقاً نقول أنّ الإنسان يموت كما قضى كلّ حياته. تعبّر هذه اللحظات الأخيرة عن المسلّمات التي آمن بها وعاشها بحبّ حتى اللحظة الأخيرة من حياته. طلب فرنسيس أن يُقرأ له إنجيل يوحنا بدءا من الآية التي تقول «قبل عيد الفصح» (يوحنا ١/ ٣١)، وكان يصلّي المزمور ٤١.

من كنيسة "سيدة الملائكة" انطلقت مسيرة الإيمان والمحبة، يغذّيها الرّبّ بكلمته وفي هذه الكنيسة أنهى فرنسيس مسيرته على الارض ولم يبق في فمه وفي قلبه سوى كلمة الله والإقتداء بالمسيح.

ورث أبناء القدّيس فرنسيس حبّه لكلمة الله ولنا في حياة خادم الرب الاب جابريل ماريا ألچرا الفرنسيسكانيّ الذي عاش في القرن الماضي وخدم كنيسة الصين فترجم الكتاب المقدّس إلى اللغة الصينية.فكانت روحانية القدّيس فرنسيس حافزاً مهماً ليقوم بهذا العمل الشاقّ. وما الصلوات التي ألّفها الأب المكرّم سوى عبارة صادقة عن هذا الحبّ لكلام الله :

«أتضرع إليك أيها الآب
أن تهبني فهم الكتاب المقدس.
أفهمني من خلاله التربية الالهية،
التي تقود أنت بواسطتها
ليس شعبا واحدا فقط
بل كل البشرية
إليك وإلى مسيحك.
على مثال القديس بوناڤنتورا
إجعلني أعمل من الدرس
صلاة مستمرة
وأن أجتهد لأصبح تلميذ الحكمة،
أن أعرفك أكثر وأن أحبك حبا عظيما!
آمين! أشكرك بدون نهاية!»

✧ ✧ ✧

«أيها الكلمة الأزلي
أريد أن أقضي حياتي في سماعك.
أريد أن أصغي إليك،
فيك تختبأ كل كنوز حكمة الله؛
أنت الذي أرسلت روحك القدوس
ليدخلني إلى معرفة الحق
ملء الحق؛
إليك أنت الحق.
يا كلمة الآب المجد،
بدّد ظلمات نفسي،
حتى إذا استنرت بك
أعمل دائما إرادة الآب
وأتشوق فقط إلى تتميم إرادته.
آمين! شكرا الى الابد!».